

الفصل الخامس عشر

«حسان» أرهقتني حياة وأتعبت قلبي هل هذا من أحبت
لا ألوم عليك فأنت لم تجدي من يقف معك في تلك المحنة سواء
كم أنت طيبة ومعطاءة، لم أتخيل بعد ما عرفته عنك وعن والدتك
وما عانيت معها أن تكوني أنت بالذات معها بمحنتها وهذه الطيبة
والحنان صدقتي حين قلت أنك تشبهين أباك.

ولكن لا أستطيع إن أمنع ذاك الضيق الذي في داخلي، إن الغيرة
تنهش قلبي من هذا الرجل الذي أحبته، يا لجنوني أغار عليك حبيتي
وأنت بين الحياة والموت نعم أغار ولم لا فأنا من أحبك بصمت أحمق.
«ينظر إلى يده أحرقتها بسيجارته دون أن ينتبه»، أي حال أنا فيه أكمل
أكمل حياة فروحي بشوق لكل تفاصيلك.

أكملي فأنا سجين حبك ولا أزال إلى الآن»

«يتابع حسان قراءة»

كانت ليلة عاصفة بكل ما فيها، صمتي قمة الصراخ، وهدوئي هو الجنون بذاته لا أعلم هل كنت نائمة أم أني أغمضت عيوني وفتحتها كأني كنت في عراق مع نفسي بين الماضي والحاضر وقصة الخادمة.

خرجت من غرفتي لأطمئن على والدتي دخلت غرفتها إنها مستغرقة في النوم يبدو عليها الراحة، تأملت المنزل لم أعتد بعد على أنه منزلي، رائحة القهوة تفوح في البيت أعدتها حليلة ووضعتها على شرفة المنزل. جلست وبدأت أشرب قهوتي وأشعلت سيجارتي وبدأت ذاك الصراع اليومي مع ذاتي المتناقضة الممزوجة دائماً بين الجد والمزاح، الحقيقة والكذب. محاولتي كل صباح في الهروب من أي شيء ومن كل شيء أعلم أني فتاة خارقة في استحضاري أي حالة أريد أن أعيشها في يومي دون عناء. أفقت من شرودي وحواري مع ذاتي الذي اعتدته كل يوم على صوت رنين الهاتف أسرعت بلهفة وأخذت سماعة الهاتف أتاني صوت أحمد بتلك الرقة نعم شربت القهوة..... لا لن أتأخر سأنزل حالا أغلقت سماعة الهاتف وأسعدت لتغيير ملابسي وخرجت بسرعة بعد أن شرحت للخادمة حليلة ماذا تفعل وكيف تساعد والدتي في تمارين المشي، أغلقت باب المنزل ومشيت وتتابني فرحة غريبة تدغدغ مشاعري

تذكرت سيرى تحت المطر ويدي بيد محمود وتلك النشوة التي لا أنساها وكيف قتلها بيده قبل أن تكتمل فرحتي بها لماذا كتب علىّ حين أرثدي عباءة الفرح تلتحفني ذاكرتي لأعود للماضي، وأخاف من تكرار التجربة، ينتابني الرعب من السير إلى ذات النهاية.

حاولت الهروب من تلك الأفكار وعدت أزرع ذاك الإحساس الجميل رغم أن الغصة لازالت موجودة ودمعتي كانت تترقق في عيني وجسدي بدأ يعرق، إنه يبكي حالي بعرقه ذاك.

وصلت إلى الشركة تابعت بعض أمور العمل المتراكمة بسبب غيابي وقبل انتهاء اليوم طلبني أحمد لمكتبه هممت إليه ولا أعلم هذا السر الذي يجعلني أرتعد حين يطلبني أهو برد... أم حر شديد... لا أعلم بل هو أكثر من هذا وذاك... هو سحر لا يقاوم، تنويم مغناطيسي لكل ما في الكون... شعور يجعلني فراشة تحلق لتخترق الزمان والحزن وأرتع بكل شوق في أحضانه وكان هذا يشعري بنشوة الفرح التي طالما افتقدت مذاقها.

دخلت المكتب كان ينتظرني وراء الباب لم يكن أقل مني لهفة وقفت أتأمله دون أي كلمة وغرقت في بحر الحب والحنان اللذين يشعان من عينيه وكأني طفلة صغيرة ترى الوجود لأول مرة من تلك العينين وشدني إليه ضمني إلى صدره.

شعرت بالدنيا من حولي تدور ولم استطع أن أثبت قدمي على الأرض، كنت في الهواء كفراشة دار بي تلك الغرفة ويقول: كم اشتقت إليك حبيتي. ودموعي كانت تبلل صدره لم أعرف حينها أن أحدد هل كانت دموع من شدة الحب أم هي خوف مما قد يأتي بعد هذا. أسرعت مبتعدة عنه.

- مابك ليتني أعلم أي جنون يعتريك فجأة، تكوينين حمامة وديعة ودون إنذار تبتعدين بتلك الشراسة كأنك لست أنت التي كنت بين أحضاني الآن.

- أخبريني ما لذي يحدث، كنت أظنك أكثر مني شوقاً، لم أعرف النوم ليلة البارحة أريد أن أبقى في أعماقك، عمرا كاملا لا يكفيني، تعالي معي لنذهب من هنا عندي الكثير أريد البوح به.

مشيت معه دون أي كلمة حاملة مسحورة بذلك الإحساس الذي ينتابني حين أكون بقربه، ركبنا السيارة، شغل أحمد موسيقى هادئة، ساد صمت غريب لم أتكلم ولم أسأله إلى أين نذهب كل ماكان يشغل تفكيري أن أبقى بجواره وهو ينظر إلى ويبستم ولمعة عينيه التي تجعلني أتوق دائما لعناقه فجأة أوقف السيارة سألته ماذا هناك؟

- حبيتي أريد أن أنتقي لك بعض الملابس الجديدة.

شعرت بضيق شديد فتحت باب السيارة وترجلت منها بعصبية
وهو ينادي حياة إلى أين ماذا حدث لك أيتها المجنونة

نظرت إليه بقليل من العجب والكثير من الغضب وقلت له:
لا أريد ملابس.

- تعالي واركبي لنذهب إلى المنزل لن نشتري ملابس تعالي
أرجوك...

عدت إلى السيارة وأنا أبتسم ابتسامة غير مفهومة وجلست
بالقرب منه دون أن أنظر إلى عينيه..

- هل لي أن أسألك سؤالاً؟

- أجل لك ذلك ولكن أسرع قبل أن أغير رأيي..

«ضحك أحمد وشعرت به طفلاً فرحاً بمزاحي وكأني أعطيته
الأمان من جديد»

- ماذا دهاك لماذا غضبتي لما أردت أن أشتري لك ما أحب وأشتهي
أن أراه عليك ردة فعلك الجنونية أغاظتني

- ما تحب وما تشتهي وما دخلي أنا بما تحب وتشتهي..؟

- يبدو أنك محتالة.... أم أنك تناورين.... حقاً لاتعلمي أني أحبك
وأهيم بك أيضاً أراك مثل البحر في مده وجزره، وتهداين
كصمت الليل ليتني أفهمك !!

وصلنا إلى المنزل قبل أن يأتيه مني جواب...

هل تأتي معي أحمد؟ أجابني: وما رأيك حببتي. هل انتهى
حديثنا مؤكداً سأدخل معك المنزل.

«بدلال يتسلل إلى قلب أحمد نزلت من السيارة واتجهت إلى
البيت وأحمد يتأملني بشغف، دخلنا المنزل واستقبلتنا الخادمة
حليمة بصمت وحالة كآبة تبدو على وجهها لم ينتبه إلى هذا كلانا
دخلت إلى أمي أطمئن عليها.

وأحمد طلب قهوته المعتادة من الخادمة حليمة وجلس ينتظرني
في الشرفة.

أمي كانت نائمة، غيرت ملابسني وخرجت إلى الشرفة حيث
يجلس أحمد.

- أخبريني كيف حالها اليوم..؟

- وجدتها نائمة لم أشأ أن أزعجها.. دخلت حليمة تقول:

- السيدة الكبيرة كانت متعبة اليوم ولم تتناول طعامها وطلبت مني
أن أطلب لها رقماً هاتفياً تكلمت مع رجل بدا عليها حزن شديد

وهي تتكلم، يبدو أنها طلبت أن تراه ولم يستجب لها ومنذ ذلك الوقت لم تتكلم ولم تأكل شيئاً أنا حزينة جداً لأجلها.

- هل تعرفين الرقم الذي؟

- نعم سيدتي أعطتني ورقة عليها الرقم هو معي.

أعطتني الورقة، انتفضت غاضبة، والدموع انهمرت مني وصرخت أمي ماذا تريد مني منه، ألم يكفي ما فعله بنا، لم أتمالك نفسي كنت أصرخ لم أعد أنتبه أن هناك أحدا بالشرفة، حالة من الهستيريا أصابتني، أخذني أحمد وضممني لصدره بكل حنان وأنا مازلت أبكي بحرقة، وأصرخ إلى متى يا أمي؟
أجلسني بجواره على الكنب.

أخبرني حبيتي من هذا الرجل الذي تكرهينه لهذا الحد، وما علاقته بوالدتك أخبريني أرجوك..

«وطلب من الخادمة كوبا من الليمون»

-أخبرتكم عنه سابقا وأخذت الموضوع على أنه حكاية من الخيال ألا تذكر وضحكت يومها من خيالي الخصب. يبدو أنك نسيت كل ما قلته سابقا.

- هو حدث لك حقا، ليست رواية من نسج خيالك، كيف لي أن أصدق وأنت حين قلت لك ما أخصب خيالك، لم تبدى اعتراضاً واعتبرت ذلك خيالا.

على كل حال حبيتي لا أستطيع أن أقول أن كل ما قلت شيئا عاديا، إنه خيف وتحملك لكل ما مريك يعني لي الكثير، ومع ذلك حياة لاتلوميهها، أحبته بكل كيانه لم تعد ترى إلا بعينه ولا تسمع إلا نداء قلبها، الحب في مثل عمرها متركب النجاة واليوم ربما كانت تريد أن تؤكد لذاتها أنها لم تخطئ باختيارها لاتريد تصديق أنها أحبت وحشا أرادها مع بناتها وحين لم يبق سواها تركها، هذا الإحساس يا حياة قاتل لمن أحبت وضحت بكل حياتها كان لابد أن تحاول.

«كان يتكلم برقة الأب الحنون ويمسح دموعي التي لا تتوقف

- أعلم تماما حالها ربما قبل الآن كنت ناقمة عليها لدرجة الكره ولكن بعد أن دخلت إليها ورأيتها مستلقية على السرير مستسلمة لحزنها ومرضها شعرت كم هي بحاجة لحنان أكثر من حاجتي أنا. حزينه من أجلها غاضبة نعم، ولكن ليس منها وإنما عليها حاولت أكثر من مرة أن أعيد حياتنا ونعود لبيت والدي ولكن..

بينما أنا أتكلم دخلت الخادمة وقالت:

- سيدي أحمد السيدة أناديا لا تتكلم لا ترد علي أرجوك تعال
معي إلى غرفتها

« دخلت وأحمد غرفة والدتي،

اقترب أحمد من والدتي أمسك يدها، وفتح عينيها، لم أكن أعلم
ما يفعل، ولكن وجوده كان يعطيني إحساسا بالأمان بوجوده أشعر
أنه لا مشكلة إلا ولها حل عنده، رجع إلى الورااء رفع سماعة الهاتف
وطلب الطبيب، وقال لي:

- هي بنا ننتظر الطبيب بالشرفة.

- لا سألقي معها ستصحو الآن تجدني بقربها تشعر بالأمان

- لا داعي حياة لن تصحو الآن دعينا نجلس هنا إلى حين يأتي
الطبيب.

-هل والدتي بخير أخبرني أحمد أرجوك..؟

أخذني بين ذراعيه، أتمنى ذلك.

بعد نصف ساعة حضر الطبيب، دخل الغرفة مع أحمد لم يمض
وقت طويل على دخولهم حتى خرجوا

وجلس الطبيب يكتب ورقة وأحمد بجانبه والدموع بعينه

أسرعت إلى غرفة والدتي لقد وضعوا الملاءة على كامل جسدها حتى رأسها، رفعت الغطاء وناديتها أمي أرجوك تكلمي ارميت فوقها أقبلها وأصرخ وهي لا تجيب.

بعد ذهاب الطبيب، دخل أحمد وأخرجني من الغرفة و أغلق الباب، أخذني لسريري وجلس بجانبني.

وأنا أصرخ هل ماتت أمي، لماذا جسدها بارد، ماذا حدث أخبروني، هل قتلها ذلك الرجل كما قتل أبي، يجب أن أقتله لن أدعه يعيش بعد كل ما فعل. سأل أحمد أليس عندك أي دواء يهدئ من حالتك تلك، أذكر قلت لي أنك تأخذين أحيانا أقراصا مهدئة مهدئ أليس كذلك أرجوك لأجلي أين الدواء...؟

- سأحضر لك الحقيبة.

«أجابته الخادمة»

«أنا شاهدتها تأخذه من حقيبتها»

أعطاني قرصا من الدواء المهدئ. وبقي بجانبني هو وحليمة أتذكر آخر شيء كان يقوله أعطني رقم بيت والدك يجب أن نخبر الأهل يبدو أنني أعطيته الرقم، وغفوت بين أحضان الماضي والحاضر في صباح اليوم الثاني، أتى أحمد إلى غرفتي يمسح على شعري،

- صباح الخير حبيبتي، أريدك قوية كما عرفتك اشربي قهوتك
وتعالى لتدبر أمر الجنازة أنا قمت بكل شيء ولكن لم أشأ أن
أخبر أهلك بحالة الوفاة ليلاً.

عندما تنتهي من شرب القهوة تعالى واتصلي بهم ليكونوا معك
في هذه المحنة.

لم أجه.. أصابتنى حالة الخرس

حياة حبيبتي أرجوك ساعديني، لم أنم طوال الليل يجب أن
أطمئن عليك أنا بالشرفة أنتظرك أشربي قهوتك وغيري ملابسك
أحضرت لك ما يناسب لمثل هذه الظروف، انتظرك بالشرفة.

بقيت كما أنا، حتى أتت الخادمة حليلة أمسكت بيدي وأخذتني
لأجلس على الكرسي وساعدتني في ارتداء ملابسى.

- حياة أعرف أن مصابك كبير ولكن يجب أن تكونى قوية، لو
بقيت على حالتك تلك ستخسرين الكثير،

نظرت إليها وماذا هناك بعد يمكن أن أخسره.

- هناك أحمد، إنه يستحق أن تكونى قوية لأجله، لو بقيت هكذا
سيشعر أن وجوده لم يغير شيئاً.

يتعاطف معك قليلاً ولكن ما أسرع أن يمل الحزن ويمضي
دون رجوع، هو حال الرجال سرعان ما يصيبهم الملل.

«كلماتها تلك كانت صفة قوية أفقتني مما أنا فيه، حقا هل ممكن أن يتخلى عني...؟»

- حياة حببتي هو يتحمل لحد ما، ولكن ما من رجل يستسيغ الحزن رغم حبه لك ولكن إذا شعر أنك ضعيفة مؤكد سوف يرحل، هيا بنا حببتي نخرج إليه ونساعده في أمور الدفن وإخبار أهللك، ليس من اللائق أن نخبرهم هو وليس له صفة رسمية - حسنا حليلة هي بنا نخرج إليه.

«كان يجلس بالشرفة ومعلومات الحزن والقلق تبدو عليه، حين رأني تقدم نحوي وأمسك بيدي أجلسني بجواره».

- الحمد لله على سلامتك، كنت في غاية القلق عليك حببتي، تعالي وأخبريني ماذا يجب علينا فعله ليس هناك متسع من الوقت من أجل الجنازة.

- سأخبر أختي وهي تخبر العائلة.

«نادى حليلة»

- أحضري الهاتف إلى هنا.

«أحضرت الهاتف حليلة»

اتصلت بأختي لمى

«بخير حببتي،... وأنا اشتقت لك كثيرا...»

- أبكي أجل، أبكي والدتنا توفيت الليلة البارحة

يجب أن تخبري الأهل ليحضرُوا الجنازة.

- كما تريدن بعد ساعة سأكون عندك.

- ماذا هناك... ولماذا أنت تذهبين، هي من يجب عليها الحضور

لترى والدتها وتكون معك في مثل هذا الظرف.

- تقول يجب أن أنقل والدتي الى منزل والدي وتخرج من هناك حتى

يحضر الأهل جنازتها لا تريد إخبار أحد بسكني هنا وخاصة ليس هناك ما يربطني بك رسمياً.

«شرد أحمد للحظات، أظن أن ما قالته أختك هو الأفضل ولكن علينا أن نتحرك بسرعة

طلب أحمد سيارة إسعاف من المستشفى ونقلنا والدتي إلى منزل والدي.

وضعناها على سريرها، ذهب أحمد وبقيت حليلة معي.

لم نتكلم أنا وأختي في أي شيء فالبيت كان مكتظاً بالناس، ومضى علينا أسبوع كامل على ذلك الحال نستقبل المعزين في النهار، حتى يأتي الليل وقد أصابنا التعب وغلبنا النعاس، ننام دون أي حديث، وانتهى الأسبوع.